تَفكيكُ خِطابِ التَّضليلِ الفِرعَونِيّ في القُرآنِ الكريمِ

أ.م.د. حيدر فاضل عباس
جامعة بغداد/ كلية الآداب/ قسم اللغة العربية
Dr.hayder.f.a@gmail.com

(مُلَخَّصُ البَحث)

يكشف تفكيك الخطاب السلطوي في القرآن الكريم جانب اللغة اللامرئي ويظهر الاستجابة اللاشعورية لقوة أنساقها المضمرة، فالتكيف اللغوي يستتبع تكيفاً فكرياً عقائدياً إذ يستجيب العقل لآليات تفكيره اللغوي .

وإذا كان الواقع سابقاً للغة، واللغة لاحقة له، فإن اللغة بما تنطوي علية من سطوة وهيمنة على اللاشعور تغدو مُشكّلةً لهذا الواقع فكأنها سابقة له لا لاحقة.

إن وقوع شعب ما تحت سلطة القمع الوحشي مدة طويلة في ظل حكم دكتاتوري ينتج سلطة قامعة أخرى هي سلطة اللاوعي الجمعي التي تحدث شرخاً في شخصية الفرد، فترسخ فيه قيم العبودية وأنساقها.

فالإرث القمعي متأصّل في مملكة فرعون حتى أضحى ذاكرتها الجمعية، وكلما تغلغل هذا الإرث في بنية المجتمع، مع تقادم الزمن، بات جزءاً من هُويّة الأمة، وحينها يصبح مقدساً.

إن وقوع الشعب الإسرائيلي تحت سلطة القمع الوحشي مدة طويلة في مملكة فرعون أنتج سلطة قامعة أخرى هي سلطة اللاوعي الجمعي التي أحدثت شرخاً في شخصية الفرد الإسرائيلي ورسخت فيه قيم العبودية والاستسلام لأنساقها.

وقد ينتج الإحساس بالقمع بفعل قسوته وطول مدته، داخل منطقة الوعي سلطة قمع ومراقبة داخل اللاوعي فتخلق الشخصية رقيبها الداخلي القامع . فلا يستطيع الإنسان تحت سطوتها أن يمارس جوهره الإنساني، فتبقى إرادته معطّلة تنتظر حدثاً مفصلياً في لحظة تأريخية تأتي برؤية أخرى تنقذ الإنسان من إنتاج عبوديته التي يدفعه الطغيان إلى إعادة إنتاجها مرة بعد أخرى.

الكلمات المفتاحية: القرآن الكريم ، التضليل، فرعون، خطاب .

المقدمة :

تاريخ الإنسان على هذه الأرض هو تأريخ الصراع المستمر والدائم بين حريته وامتلاك ذاته، وبين قهره وضياع جوهره الإنساني؛ إذ لم يدع الطغاة وسيلة من وسائل إخضاع الآخرين لعبوديتهم وسلب إرادتهم إلا استغلوها. وتأتي في مقدمة هذه الوسائل التي استغلها الطغاة للسيطرة على غيرهم اللغة بما تمتلك من طاقات كبيرة في توجيه مسارات الإنسان النفسية والفكرية والسلوكية.

إن أفعالنا لا تصدر عن إرادتنا دائماً، وإن كنا نظن ذلك؛ فتشكيل عقولنا يخضع لسلطان اللغة، إذ يستجيب العقل لآليات تفكيره المستعارة من اللغة وقوة أنساقها المضمرة .

وتفكيك الخطاب يكشف المضمر والمقصي تمهيداً لنقد التعالي الذي أُسِّسَ عبر تراكمات الزمن وأحداث التأريخ، ويمتلك فاعلية منهجية في كشف المضمرات الدلالية وصيرورتها في البنى النصية، وسيرورتها في الأنساق المضمرة لقراءة النصوص في ضوء العوامل التاريخية، والسياقات الاجتماعية التي أنتجتها، ويسمح للناقد بأن يضم أفقه الثقافي وزمنه التاريخي الآني إلى أفق النص في تمثّله الاجتماعي وتجلّيه التاريخي.

إن بنيات الخطاب تتغير تبعاً للتغيرات التي تطرأ على البنى الاجتماعية . فالخطابات التسلطية الاستعبادية خطابات ترسخها الأنظمة الاستبدادية التي تدعي امتلاك المعرفة والحقيقة اللتين تغدوان بمرور الزمن خطاباً متعالياً على المعرفة والحقيقة؛ بزعم قداسته، ومن ثم عدم جواز التشكيك فيه ، وبذلك يشكّل وجودنا ويوجه أفكارنا ويحدد منظورنا لما يحيط بنا.

فالمعتقدات والقيم تمثل طريقة للنظر إلى الكون، والإنتاج الاجتماعي للمعنى يُعد جزءاً من الخطاب؛ لذلك علينا العدول عن وجهة النظر التي ترى اللغة نظاماً من المعاني يشترك فيه كل الناس. إذ تغيّر الكلمات معناها تبعاً لأوضاع أولئك اللذين يستخدمونها .

وقد اخترت منهج تحليل الخطاب لقدرته على كشف أنساق الخطاب المضمرة، ومن ثم رصد أوجه الشبه بين عدد من النصوص بوصفها قواسم مشتركة لمجموعة بعينها من العلاقات بين السلطة والمعرفة، أو بين الاستعباد وممانعته، وبيان التحولات التي طرأت على إنتاج المعرفة وتداولها. وقد عالج البحث محاورَ تكشف أبعاد التضليل الفرعوني وأنماطه، وهي المحاور التي سيبنى عليها البحث.

قتل عنصر المقاومة في المجتمع :

اعتقد فرعون أن عنصر المقاومة لسلطته والممانعة لحكمه في المجتمع ينحصر في جنس الرجال، لذلك كان يقتل الرجال، ويستبقي النساء ﴿ **وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ** ﴾(سورة البقرة: ٤٩) (Souret Albakara: 49) ، والتذبيح هي مبالغة في فعل الذبح، فالتفعيل أبلغ من الفعْل، ففيه دلالة على الإمعان في التنكيل ببني إسرائيل وخضد شوكتهم، والاستحياء الاستبقاء على قيد الحياة، استحياه : أبقاه حيّاً . يستحيي نساءكم : أي يُبقي النساء على قيد الحياة ﴿**وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ**﴾ أي يَسْتَبْقُونَهُنَّ للخدمة ولا يقتلونَهُنَّ (الراغب الأصفهاني، ١٩٩٦، ص٧٢) (Alragheb Al-Isfahani, 1996, P72)، و(ابن منظور، د، ت)(Ibn Manzur, Without date).

ولم يتطرق القرآن إلى مصيرهن في ظل غياب الرجال عنهنَّ، ولكن ما جاء به المفسرون مُستفاد من الدلالة العرفية، ((وقد يكون في قوله تعالى بعد ذلك: ﴿**وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ** ﴾ كناية عن استيحاء خاص، وهو أن يعتدوا على أعراضهن ولا يجدن بُداً من الإجابة بحكم الأسر والاسترقاق، ولذلك أدخل في الإشارة في قوله: ﴿ **وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ** ﴾ ولو كان المراد من الاستيحاء ظاهره لما كان وجه لعطفه على تلك المصيبة)) (ابن عاشور، د. ت، مج١، ص٤٧٦)(Ibn Ashour, Without date, Vol.1, P476).

ولم يدر في خَلَدِ فرعون أن مَن سيهدد عرشه ويقضي على ملكه امرأة من جنس النساء، بل هي زوجُهُ، فقد فعلت آسيا بنت مزاحم ما لا يفعله آلاف الرجال، حين أقنعت فرعون أن يبقي على حياة موسى حين كان وليداً، وحين آمنت به رسولا، متحدية فرعون وجبروته.

فالموقف الأول كان موقفاً قدرياً غيرَ واعٍ والموقف الثاني كان موقفاً اختيارياً واعيّاً .

فالمرآة حفظت عنصر المقاومة وآمنت به. وبذلك يتضح أن المقاومة ليست دائماً مقترنةً بالقوة الجسدية. فالمرأة هنا رمز الكمال، قال تعالى: ﴿ **وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا اِمْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**﴾(سورة التحريم: ١١) (Surat Altahrim: 11).

ولم يقل: وضرب الله مثلاً للنساء، أو وضرب الله مثلاً للائي آمنَّ، وإنما قال: ﴿**وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ وعليه فإن امرأة فرعون لم تكن قدوة للنساء خاصة، بل هي قدوة للناس عامة.

وفي بيت فرعون عاشت امرأة كانت تمثل قدوة للناس، إذ استطاعت التغلب على كل العقبات التي كانت تواجهها. هذا من جهة، ومن جهة أخرى تدعو الآية المباركة إلى تأكيد المسؤولية الفردية، ولو غاب الوعي الجمعي، فكل إنسان رجلاً كان أو امرأة مسؤول عن ذاته، ولن يُعفيَهُ من هذه المسؤولية وجود العوائق، مهما كان عددها ونوعها وحجمها.

فامرأة فرعون هذه كانت تعيش في بيت صاحبه يحصر الحقيقة في شخصه، ويقصر المعرفة على نفسه، بل يذهب إلى أبعد من ذلك فهو لا يدعي الربوبية حسب، بل كان يزعم أنه رب الأرباب فقال: ﴿**فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى**﴾ (سورة النازعات: ٢٤) (Surat Alnaazieat:24) ، مقابل قوله تعالى: ﴿**سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى**﴾ (سورة الأعلى: ١) (Surat Al'aelaa:1)، وكذلك كان يدعي أنه الإله الأوحد فيقول: ﴿ **مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي**﴾ (سورة القصص: ٣٨) (Surat Alqasas:38)، فقد تحررت امرأة فرعون من آصرة الزوجية التي كانت تربطها بفرعون، وتخلّت عن مغريات الحياة المرفّهة، والعيش الرغيد في قصره، ولم تخشَ وحشيته، وقاومت ضغط المجتمع وهيمنة أنساقه الجمعية عليها، فكانت مثالاً للشخصية الإنسانية المستقلة في إيمانها ومبادئها وقيمها (التهامي، ١٩٧٤، ص٤٠١) (Al-Tohami, 1974, P401)، فهي تطلب مرضاة الله أولاً وبعد ذلك تطلب بيتاً إلى جواره، فهي لا تقول ربِّ ابنِ لي بيتاً في الجنة، ولا تقول ربِّ ابنِ لي بيتاً عندك في الجنة، بل تقول : ﴿**قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**﴾ (سورة التحريم: ١١) (Surat Altahrim: 11)، ولا تكتفي هذه المرأة بأن تطلب من الله أن ينجيها من فرعون حسب، بل تدعوه أن يخلصها أيضاً من عمله وهو الشرك، فهي لا تريد الخلاص من ظلمه فقط، بل تريد إنقاذها من أن تُنزل الظلم بالآخرين، بل تزيد على ذلك دعاءها أن ينجيها الله من القوم الظالمين؛ حتى لا توهم اختصاص دعائها بالنجاة من فرعون وحدهُ، بل إن دعاءها بالنجاة يشمل النجاة من الظالمين كلهم، وفرعون منهم.

إن الفضائل خارجة عن نطاق الذكورة والانوثة، فجوهر الإنسان هو الروح، والروح لا هي مذكر ولا هي مؤنث، فلا الذكورة شرط فيها ولا الانوثة مانعة منها، فالذي لابد أن يتكامل هو الروح، والروح مجرّدة من التذكير والتأنيث. فأيّ كمال لا تشترط فيه الذكورة ولا تمنع منه الانوثة (آملي، ١٣٨٤ هـ.ش، ص١١٣-١١٤) (Amliy, 1384 H. P113-114).

وقد أوحى الله إلى أم موسى ﴿ **وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ**﴾ (سورة القصص: ٧) (Surat Alqasas:7)، إن تضحية الأم بولدها طاعة لله لا تقل عن تضحية الأب بولده طاعةً لله، فكما ضحى إبراهيم الخليل بولده إسماعيل طاعةً لله، ضحت أم موسى بطفلها تسليماً لله، بل ربما فاقت تضحيتها تضحيات الآباء لما تُعرف به المرأة من عاطفة تجاه طفلها متأصلة في فطرتها بخلاف الرجال الذين يغلب عليهم تحكيم العقل أكثر من العاطفة ((وبذلك تكون الرسالة الربانية مؤداة من المرأة كما هي الحال بالنسبة للرجل فشجاعة أم موسى موازية لشجاعة الأنبياء من أولي العزم)) (الفاضلي، ٢٠١٨، ص١٤٤) (Al-Fadhli, 2018, P144) ، ولكننا نعتقد أن الكمال درجات، وأولو العزم صفوة الخلق، ونبينا ورسولنا محمد ♦ صفوة الصفوة، فهو أفضل الخلق وأكملهم.

كل شيء من أجل السلطة:

يستعين فرعون بكل الأدوات الفاسدة، وفي مقدمة هذه الأدوات أداة تفتيتية داخلية هي تفريق المجتمع وجعله فئات متناحرة ﴿ **إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ** ﴾ (سورة القصص: ٤) (Surat Alqasas:4). فبدلاً من أن يكون الأقباط مع اليهود في مواجهة فرعون وطغيانه، أصبح الأقباط في مواجهة اليهود، لترسيخ حكم فرعون!، وأما الأداة الأخرى فتضليلية خارجية إذ استعان فرعون بالسحرة. ﴿ **وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ**﴾ (سورة يونس: ٧٩) (Surat Younis:79)، للبقاء على سلطته. فكل شيء مُباح في منظور الأنظمة الاستبدادية التَسلطية للحفاظ على حكمها وإبقاء سلطتها، ولم يكتفِ فرعون بأن يأتوه بساحرٍ أو اثنين أو مجموعة من السحرة، وإنما أراد أن يأتوه بالسحرة كلهم، بل أمر أن يحضروا له كل السحرة الراسخين في فن السحر، ذلك أن (عليم) على وزن (فعيل)، وهي صيغة مبالغة، وفي ذلك دلالة نفسية عميقة، تكشف عن خوف فرعون وقلقه الشديد من افتضاح أمره، وانكشاف حقيقته أمام الناس، ويحشد فرعون كل طاقاته الشخصية ﴿**فَتَوَلَّى**

فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى﴾ (سورة طه: ٦٠) (Surat Taha:60)، فلم يُعطِ لنفسه فرصة للتأمل في دعوة موسى ﷺ، فهو بعد حادثة التحدي مباشرةً يذهب ويجمع كيده. وهذه الفاء في (فتولى) وفي (فجمع) تؤكد ذلك، وفي الوقت نفسه يأخذ وقتاً كافياً لمواجهة موسى (ثم أتى)، فحرف العطف (ثم) الذي يفيد التراخي الزمني يشعر بذلك، وهذه الآية تكشف هي أيضاً خوف فرعون الشديد من انكشاف حقيقته، ويجنّد كل إمكانات مملكته **﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾** (سورة الشعراء: ٥٣) (Surat Alshueara':53). يتضح خوف فرعون الشديد مرةً أخرى من مواجهة موسى ﷺ فهو يرسل أعوانه مباشرةً (فأرسل) إلى مدن مملكته (في المدائن) لجلب السحرة وإحضارهم لديه ولو بالقوة (حاشرين)، فالحشر فيه دلالة الإكراه والقسر، ويوحي بضيق الحال والاضطرار.

وإذا كان فرعون قد طلب أن يأتوه (بكل ساحر عليم)، فإن الملأ من قومه، لم يكتفوا بذلك، بل زادوا من حذرهم وحيطتهم في مواجهة موسى ﷺ أكثر من فرعون نفسه؛ فبقاء مصالحهم وامتيازاتهم الضخمة مرتبط ببقاء فرعون وحكمه. قال الله ﷻ حكاية لقولهم **﴿ قَالُوا أَرْجِهِ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ* فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾** (سورة الشعراء: ٣٦-٣٨) (Surat Alshueara': 36-38)، فهم يطلبون من فرعون مدة زمنية أكثر، وقد اتفقت كلمتهم على ذلك **﴿ قَالُوا أَرْجِهِ وَأَخَاهُ ﴾** ، ليكون استعدادهم لمجابهة موسى أكبر، وبعد ذلك طلبوا منه أن يبعث رجاله وجنده وأعوانه إلى أنحاء مملكته **﴿وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ﴾**، لجلب السحرة وإحضارهم لديه بالقوة **﴿حَاشِرِينَ﴾**، ويتضح خوف الملأ الشديد من انكشاف أمر فرعون؛ فهو انكشاف لأمرهم أيضاً، باشتمال خطابهم لفرعون على فعلين بصيغة الأمر (أرجه، وابعث)، وأخذ فرعون بنصيحة قومه، فأجل لقاء السحرة لموسى، وبعث رسله إلى مدن مملكته، ليأتوا إليه بكل **﴿ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾**، و(سحّار) على وزن (فَعّال)، وهي صيغة مبالغة، و(عليم) على وزن (فعيل)، وهي صيغة مبالغة أيضاً، فسَاحرٍ جاءت بصيغة اسم الفاعل، وهو ((يدل على الحدث الذي يتحقق من معنى المصدر ويدل على الحدوث، ولا يدل على الثبوت بدرجة ثبوت الصفة المشبهة، ولا يدل على الحدوث أو التجدد بدرجة الفعل، ولكنه أدوم وأثبت في المعنى من الفعل))(عكاشة، ٢٠٠٥، ص٧٤) (Okasha, 2005, P74)، فصيغة (ساحر) هنا تدل على الحركية والاتصاف بالفعل، أما كلمة (سَحَّارٍ) فهي صيغة مبالغة على وزن فَعَّالْ ((التي تعد من أقوى صيغ المبالغة للدلالة على الشيء الذي يتكرر فعله أو الشيء الملازم لصاحبه حتى صار حرفة فلازمه في الوصف))(عكاشة،٢٠٠٥، ص٨٥) (Okasha,

2005, P85)، والأصل عند العرب أن ينسبوا إلى الحرفة والصنعة بصيغة (فَعَّالْ). قال ابن سيده: ((والباب فيما كان صفة أو مبالغة أن يجيء على فَعَّالْ لأن فعَّال لتكثير الفعل، وصاحب الصنعة، فيحصل له البناء الدال على التكثير)) (ابن سيدة، د. ت: ١٥/٦٩) (Ibn Sayida Without date: 15/69).

وفرعون في جمعه السحرة ﴿ **لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ** ﴾ كان يكيد لموسى عليه السلام، فقد وقع في وهمه أن النصر سيكون حليفه، وسيشهد هزيمة موسى عليه السلام أكبر عدد من الناس؛ ليفتضح أمره ويصيبه الصغار، ولم يعلم أن ذلك الحشر والجمع كان كيداً من الله ﷻ له لينكشف أمره أمام الجميع.

كل ذلك من أجل مواجهة فرد واحد أعزل إلاّ من إيمانه بالله ﷻ ، وفي ذلك دلالة نفسية عميقة. فخوف فرعون من انكشاف أمره وبيان حقيقته، يُصيبه بالذعر والفزع الشديدين، ففي الوقت الذي يمارس فيه فرعون، ضد شعبه الإرهاب بأنواعه المتباينة: الجسدي، والإعلامي، والفكري، يقع هو فريسة الإرهاب النفسي. وهو أشد إيلاماً للنفس من غيره من أنواع الإرهاب الأخرى.

تسليع القيم :

إن كل القيم عند فرعون قابلة للتسليع، ويحكمها منطق البيع والشراء، قال تعالى: ﴿**وَجَاء السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُواْ إِنَّ لَنَا لأَجْراً إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ* قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ**﴾ (سورة الأعراف: ١١٣-١١٤) (Surat Al'aeraf: 113-114). وكذلك قال تعالى: ﴿ **فَلَمَّا جَاء السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْراً إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذاً لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ** ﴾ (سورة الشعراء: ٤١-٤٢) (Surat Alshueara': 41-42) .

يتضح من سياق الآيات أن هؤلاء السحرة هم طلاب أجر ومنفعة عاجلة ، وليسوا طلاب حق وفضيلة ، وهذا المعنى يتحصَّل من الدلالة القريبة للآيات، ولكن التأمل في الآيات يكشف عن معانٍ أعمق، إذ يتضح للمتأمل أن الأنساق القيمية المهيمنة في مملكة فرعون ، والمنظومة الأخلاقية الحاكمة في سلوك رعيته ، هي أن كل شيء بضاعة قابلة للبيع والشراء، وليس هنالك مبدأ قيمي أخلاقي خالص حتى إن السحر في المملكة الفرعونية بات جزءاً من معرفة ليست مباحة حسب، بل لها مقامها الرفيع في المجتمع مادياً ومعنوياً ما دامت تؤدي إلى تثبيت الحكم الفرعوني، ويشهد على ذلك ما أجاب به فرعون سؤال السحرة ﴿ **أَئِنَّ لَنَا لَأَجْراً إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذاً لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ** ﴾، فأقر طلبهم أجراً مُنكَّراً مطلقاً بلا قيود، فكأن ((تنكير (أجراً) تنكير تعظيم بقرينة مقام المَلِك وعِظَم العمل))

(ابن عاشور، د. ت، مج٨، ص٢٣٢) (Ibn Ashour, Without date, Vol.8, P232)، وهذا هو المقابل المادي العظيم، وزاد عليه مقام القرب منه، وهو المقابل المعنوي الرفيع.

يعلم فرعون أن السحرة هم طلاّب أجر، ولهذا لم ينهْرهم، وإلاّ فالمواجهة بين طاغية (إله معبود) ، والسحرة (طبقة من رعيته) غير مقبولة، ولكن فرعون قبلها، لأنها تصبّ في منفعته الكبرى المتمثلة في تغييب وعي رعيته؛ لتثبيت سلطانه وحكمه. إن الخطاب في سورة الأعراف استفهامي حُذِفَت أداة الاستفهام منه فظهر بصورة جملة خبرية، ودليل كونه استفهامياً أنه أُجيب بـ(نعم)، فكأن السحرة يقررون حقيقة تعامل فرعون مع هذه الأمور بالبيع والشراء، أما الخطاب في سورة الشعراء فهو استفهامي، وقد ظهر بصورته الاستفهامية الأصلية. وهذا التباين بين الأسلوبين مرده إلى ((قوة الاستفهام وشدة اللهفة إلى استماع الجواب من فرعون نفسه)) (السامرائي، ١٩٩٠: ٤/٦١٢) (Al-Samurai, 1990: 4/612) .

وأزيدُ على ذلك أن آيتي الأعراف وإن كانتا تفيدان الاستفهام ضمناً بدلالة مجيء حرف الجواب (نعم) في الآية الثانية، لكنهما إخباريتان بحسب الظاهر، وهذا يدلُّ على أن الاستفهام استفهام الواثق الجازم بحصول بغيته، بخلاف آيتي الشعراء اللتين جاء الاستفهام فيهما صريحاً بما يدلُّ على عدم الوثوق والجزم بحصول المبتغى، وسبب ذلك فيما أرى تأخر نزول سورة الشعراء عن سورة الأعراف (ابن الضريس، ١٩٨٨، ٧٣-٧٤) (Ibn Al-Darys, 1988, P73-74)، ولاشك أن المُبطِلَ يعلم في داخله أنه ليس بصاحب حق، وأن أظهر نفسه أمام الآخرين بمظهر الواثق الجازم، وكلما امتدَّ به الزمن تراءى له قرب افتضاح باطله، وهذا ما حدث لسحرة فرعون، فقد كانوا في بادئ أمرهم يحاولون أن يظهروا بمظهر الواثقين الجازمين بما عندهم، لكنهم مع اقتراب موعد المنازلة بدأت ثقتهم بأنفسهم تهتزُّ، وكشف عن ذلك خطابهم في آيتي الشعراء المتأخرتين نزولاً اللتين جاء خطابهم فيها لفرعون بصيغة الاستفهام الصريح بعد أن كان استفهاماً ضمنياً في خطاب ظاهره الإخبار الذي يفيد الوثوق والجزم.

التنقل في الكيد:

بدأ فرعون في مواجهة رسالة موسى التوحيدية بالاستهزاء من ربِّ العالمين، قال تعالى حكاية عن فرعون: **﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾**(سورة الشعراء:٢٣)(Surat Alshueara': 23)، ولما لم يُجدِ الاستهزاء نفعاً، انتقل إلى اتهام رسول ربِّ العالمين موسى في عقله، فقد وصفه بالجنون، قال تعالى حكاية

لقول فرعون: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ (سورة الشعراء: ٢٧) (Surat Alshueara': 27) ، ولما لم تصمد هذه التهمة هي الأخرى أمام منطق الحق، عندها اتخذ فرعون شكلاً جاداً في مواجهة موسى فقد حشد السحرة للتصدي لما جاء به ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴾(سورة الشعراء: ٥٣) (Surat Alshueara': 53) ، إن عدم استقرار فرعون على رأي معين تجاه موسى ودعوته في مقابل ثبات موسى على رسالته وموقفه من فرعون، يكشف اضطراب فرعون وكذبه مقابل طمأنينة موسى وصدقه .

وبعد الحدث التاريخي الذي جمع بين موسى والسحرة، وإيمان السحرة بموسى ورسالته، وانكشاف أمر فرعون وحقيقته، أنكر فرعون إيمان السحرة، وتنصل من فعلهم، متهماً إياهم بالمكر: قَالَ﴿ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ (سورة الأعراف: ١٢٣) (Surat Al'aeraf: 123).

وكأنّ السلطة تملك العقول كما تملك الأجسام، فحين انقلب السحرة عليه، غير فرعون من أسلوبه معهم وبدّل من سلوكه تُجاههم . إن هذا التنقل في الكيد حسب مقتضيات الموقف. أي اللجوء إلى الخداع والتضليل والمراوغة ، عند انكشاف الحقيقة ، هو خصيصة من أهم خصائص الحكم الدكتاتوري، ((إن فرعون ينكر عليهم أن يؤمنوا قبل أن يأذن لهم، كأنَّ عملية الإيمان تحتاج إلى الأذن الفرعوني، كما يحتاج إليها أي عمل آخر، يتعلق بقضايا الإدارة والحياة))(فضل الله، ١٩٧٩، ص٢٧٣) (Fadal Allah, 1979, P273)، حيث استفهم مستنكراً منهم ، ومنكراً عليهم، فأنتم عبيد، فكيف تفعلون شيئاً من غير إذني. فالمرجعية واحدة (انا ربكم الأعلى) وهنا يتضَّح مبدأ تكريس الربوبية.

تلاقي المصالح الفاسدة:

مثلما يوحد الإيمان القوميات المتنافرة والأعراق المتباينة، كما في قوله تعالى ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾(سورة غافر: ٢٨)(Surat Ghafir: 28)، كذلك يجمع الكفر أصحاب المصالح الفاسدة، قال تعالى:﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝٢٣ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾(سورة غافر: ٢٣-٢٤)(Surat

Ghafir: 23-24) وقال كذلك:﴿ **وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءهُم مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ**﴾((سورة العنكبوت: ٣٩)(Surat Aleankabut: 39).

إنَّ قارون من قوم موسى، ولكنه انحاز إلى فرعون وهامان، وهما من غير بني جلدته، بل هما من المتسلطين على أبناء قومه من اليهود ﴿ **إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾** ﴾(سورة القصص: ٧٦) (Surat Alqasas:76) ، أما ما تذهب إليه بعض الروايات التي ينقلها المفسرون في تحديد صلة القرابة ودرجتها، فالآية ساكتة عن ذلك؛ فمن أسلوب القرآن عدم ذكر ما لا فائدة منه ولذلك لا يجيء (هامان) في القرآن إلاّ مجموعاً إلى فرعون، على التبعية والإلحاق، لا يتقدمه قط، ونفهم من سياقات الآيات التي تجمع بين فرعون وهامان، أن (هامان) رجل ذو شأن في بلاط فرعون، ولكنه يعمل بين يديه، ويأتمر بأمره، وكأنه وزيره أو قائد جنده، أما (قارون) –حين يجمع في القرآن إلى (فرعون وهامان) – فهو لا يتوسطهما البتة، وإنما يجيء قارون بعد (هامان) كما رأيت في قوله ﷻ : ﴿**إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ**﴾ (سورة غافر: ٢٤)(Surat Ghafir: 24)، أو يجيء (قارون) قبل (فرعون وهامان)، كما ترى في قوله ﷻ : ﴿ **وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءهُم مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ**﴾(سورة العنكبوت: ٣٩)(Surat Aleankabut: 39) ، فتفهم أن ثمة فارقاً يحول دون إدماج (قارون) في (فرعون وهامان)، فقد كان قارون رجلاً من بني إسرائيل، وكان هامان مصرياً من قوم فرعون(أبو سعدة،٢٠١١: ٢/٦١-٦٢)(Abu Saada,2011: 2/61-62). فانحياز قارون للطاغية فرعون لم يكن بدافع الإيمان به ، أو الانتصار له بدافع العصبية القومية، وإنما الحكم الاستبدادي يحفظ دائماً لذوي الأموال الطائلة امتيازاتهم.

وهنا يتضح أن علاقات السلطة الظالمة تحددها العلاقات المادية في ظل غياب تام للمبادئ القيمية الأخلاقية، فالمصالح تجمع وتحرّك الفئات المتباينة باتجاه واحد، في ظل منظومة قيمية فاسدة تحكم المجتمع.

وبذلك يتضح أن الاستبداد والطغيان والإرهاب صناعة مشتركة من أربعة أطراف هي:

١- الطاغية نفسه (فرعون).

٢- وبطانته (الملأ)

٣- وأصحاب الثروات الطائلة التي يحفظ الحكم الدكتاتوري الاستبدادي امتيازاتها (قارون). وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ (سورة غافر: ٢٣-٢٤)(Surat Ghafir:23- 24)، وقد اتفقت مصالحهم الفاسدة فاتفقت كلمتهم الباطلة ﴿ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾.

٤- والشعب نفسه حين يسمح للطاغية أن يُغيّب وعيه، ومما ساعد فرعون من تمكنه من شعبه المُستضعَف أنه وجدهم ضِعاف العقول، فسهُل عليه تغييب وعيهم ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ﴾ (سورة الزخرف: ٥٤)(Surat Alzakhrif: 54) ، والآية تحمل معها تعليلها إذ تبين أن طاعة الرعية للطاغية والخنوع له سببه فسوق الرعية وانحرافهم عن فطرتهم فالفسوق يمسخ الكينونة البشرية فيسهل على الحاكم الظالم استعبادهم وإذلالهم.

تعظيم الذات وتهوين شأن المعارض:

عظّم فرعون نفسه ورفعها إلى درجة الإله، وفي مقابل ذلك سعي إلى تهوين شأن الآخر والانتقاص منه.

فبرزت الأنا عند المُستضعِف بإزاء اختفاء الأنت عند المُستضعَف، ولولا تمكين المُستضعَف المُستضعِف منه، ما استقوى عليه، وغيَّب وعيه ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴾(سورة القصص: ٣٨) (Surat Alqasas:38)، وكأن فرعون أراد أن يقطع الطريق على من يحتج بأن ثمة من يعبد غيره فاستدرك بالقول ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى ﴾ مع أن الله تعالى قال: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾(سورة الأعلى: ١) (Surat Al'aelaa:1)، فكلمة الأعلى هنا تتضمن منتهى التفضيل من طريق صيغة التفضيل المقترنة بـ(ال) التعريف (الأعلى) التي تفيد أنه أعلى من كل عالٍ، ويفهم من هذا استحالة اتّصاف غيره تعالى بصفة الأعلى، لكن فرعون كان يحصر هذا المعنى في شخصه، ويدعي أنه هو الأعلى، فهو كما كان يدعي الربوبية فإنه كان يدّعي الوحدانية في الربوبية ، فالوثنية تؤمن بالتعددية؛ لذلك خشية أن يعد رباً من عدة أرباب كما هو شأن معظم الوثنيات أتى بصفة الأعلى؛ ليوحي بأنه مهما تعددت الأرباب فمرجعها إليه، فإن كان ثمة أرباب غيره فهو أعلاها، وهذا منتهى درجات العلو.

فهو دائماً يذكّر قومه بعظمة نفسه ليثبّتهم على طاعته. ﴿ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾(سورة الشعراء: ٤٤) (Surat Alshueara': 44)، نجحت المقدمات التي توسل بها فرعون للوصول إلى تغييب الوعي الجمعي، فاستمرار ادّعاء الإلوهية، وخنوع الشعب بإزاء هذه الدعوة أدّى إلى هذه النتيجة.

ومن أساليب فرعون في تغييب الوعي الجمعي ما قصه علينا القرآن في قوله تعالى: ﴿ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ* فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ (سورة النازعات: ٢٣-٢٤) (Surat Alnaazieat: 23-24)، فالحشر فيه معنى القسر والإكراه ويوحي بضيق الحال والاضطرار، وكذلك فيه معنى الحشد الذي يسيطر فيه الوعي الجمعي على حشود الناس ويغيب معه الوعي الفردي؛ لذلك يستثمر فرعون هذه الحالة فيناديهم مباشرة، ليسيطر على مشاعرهم في غياب الوعي الفردي، ليعلن ربوبيته العليا لهم، وتعاقب الفاءات الثلاثة في (فحشر، فنادى، فقال) يكشف عن سرعة تعاقب الأحداث وتلاحقها بلا مهلة ولا تراخٍ، ويوحي بحرص فرعون الشديد على إتمام مشروعه التضليلي في غياب الوعي الجماهيري.

وكذلك حكى لنا القرآن قول فرعون : قَالَ﴿ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾(سورة غافر: ٢٩)(Surat Ghafir:29)، ويكشف عن تعاظم الذات عند فرعون وبروز (أناه) كثرة تردد الضمائر الشخصية الظاهرة والمستترة في خطابه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ سورة القصص: ٣٨) (Surat Alqasas:38) ، فقد ظهر عن إحصاء الضمائر في هذه الآية وجود ثمانية ضمائر، ستّة منها ظاهرة واثنان مستتران.

حين يقرّر فرعون أنه إله، فهو يجعل شعبه مسلوب الوعي، معطَّل الإرادة أي أنه يمارس على شعبه الإرهاب الفكري، فقد احتكر فرعون الحقيقة والمعرفة، إذ جعل الحقيقة المطلقة محصورة فيه، فهو وحده يمتلكها؛ ولذلك فهو يفكّر نيابة عنهم، ويقرّر مصيرهم بدلاً منهم.

يعلن الخطاب الفرعوني ادعّاء طلب المعرفة والبحث عن الحقيقة، ولكن أنساقه المضمرة تكشف خلاف ذلك، فهو يضمر الرغبة في السيطرة على بني إسرائيل وإخضاعهم له وامتلاك المعرفة، بل احتكارها بناءً على أن الحقيقة محجوبة

عـنهم، منكشـفة لـه فقـط، دون سـواه. إن فرعـون يـرى مـا لا يـراه غيـره، فهـو مـن جـنس أعلـى ورعيتـه مـن جـنس أدنـى، لـذلك فثمـة قيـود علـى مـا يمكـن التفكيـر فيـه، وهنـاك حدود لما يمكن إدراكه.

وبعد أن كرّس فرعون فكرة ادّعائه الإلوهية من مدخلٍ نظريّ، عاد مرة أخرى ليكرسها من مدخلٍ عمليّ، إذ أشار إلى امتلاكه لمصر، بل امتلاكه لعنصر الحياة (الأنهار)، التي هي قوام حياتهم وحياة زروعهم وأنعامهم، فهو إذن المتحكم في مصائرهم. **﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ* أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾**(سورة الزخرف: ٥١-٥٢) (Surat Alzakhrif: 51-52)، يُشعر لفظ النداء (ونادى فرعون) الذي جاء في صدر الآية بالدعاية الإعلامية التي يقوم بها فرعون لنفسه، لتذكير قومه بعظمته؛ ليثبّتهم على طاعته. وقد أُسند النداء إلى فرعون مباشرة، والأصل في ذلك، أمر فرعون فنودي (مجاز عقلي علاقته السببية)؛ لإظهار أهمية ما يُدعى إليه . وهذا يكشف عن حرص فرعون البالغ على الدعاية الإعلامية التي يقوم بها لمشروعه التضليلي. وبعد ذلك جاءت رسالته الإعلامية إلى قومه يتصدرها الاستفهام التقريري المقترن بالنفي (أليس)، وقد ((جاء التقرير على النفي تحقيقاً لإقرارهم حتى أن المقرِّر يفرض لهم الإنكار فلا ينكرون)) (ابن عاشور، د. ت: ٢٥/٢٦٩)(Ibn Ashour, Without date: 25/269)، وهذا أكثر تأثيراً وتأييداً في تثبيت دعوى ملكيته لمصر من قوله: لي ملك مصر. ففي الحالة الأولى تكون دعوى تثبيت ملكيته لمصر من قومه، وبذلك لا يمكن الطعن فيها، أما في الحالة الثانية فتكون دعوى تثبيت ملكيته لمصر من نفسه، وفي هذه الحالة تكون هذه الملكية قابلة للطعن فيها من قومه. وبعد أن يثبّت فرعون ملكيته للأرض، يثبّت ملكيته لأهم ما فيها (الأنهار) **﴿ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ﴾** ، فدعواه جريان الأنهار من تحته تستبطن عدة معانٍ أهمها:

١- كناية عن التسخير ودلالة على التمكن، فهي تجري بأمره .

٢- إيحاء بالعلو والاستكبار ، فهي تجري من تحته .

٣- إشارة إلى ربوبيته للناس، فالمياه أصل الحياة وسرّ الوجود، وهو مالكها؛ فهو واهب الحياة **﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾** (سورة الأنبياء: ٣٠) (Surat Al-Anbia': 30) .

٤- تلميح إلى دوام سلطانه، ومن ثم دوام ربوبيته للناس، فالأنهار تجري، والجريان فيه دلالة على البقاء وعدم النفاد، وقد أكد هذا المعنى حين قال (الأنهار) ولم يقل (النهر).

٥- يضمر امتلاك فرعون في الدنيا أعظم ما يوعد به المؤمنون في الآخرة، تأكيد فوقيته وترسيخ دونية غيره، فهو قد حاز في الدنيا ما تهفو إليه قلوب الناس في الآخرة . فقد وعد الله المؤمنين في الآخرة جنات تجري من تحتها الأنهار، وفرعون يقول هذه الأنهار تجري من تحتي في هذه الدنيا، وهو بذلك يُنشئ نصاً مضاداً للنص التوحيدي والقرآني.

٦- يشي بخطابٍ مضمرٍ قسري كأنه شرط لازم، فإذا كانت الأنهار تجري من تحته؛ فلابد أن تكون الرعية تحت أمره وطوع إرادته.

٧- الإشارة إلى الأنهار باسم الإشارة القريب (هذه) وإضافة الجريان إلى الأنهار توحي بسهولة تناول المياه ويسر الحصول عليها، وانتفاء التزاحم عليها، وعدم الحاجة إلى الاقتصاد فيها؛ لكثرتها، وفي ذلك إيحاء إلى رخاء الحياة في ظل ملكه.

يقول الطاهر بن عاشور: ((إن الأنهار إشارة إلى تفاريع النيل التي تبدأ قرب القاهرة فيتفرع النيل بها إلى فرعين عظيمين، فرع دمياط، وفرع رشيد، وتعرف بالدلتا، فالإشارة إلى جداول النيل وفروعه المشهورة بين أهل المدينة، كأنها مشاهدة لعيونهم، لذلك فلفظ الأنهار لا يكفي وحده وإنما جاء اسم الإشارة للإحالة عليه، إشارة إلى مصاحبة اللفظ وما يريده من التوضيح والتحديد)) (ابن عاشور، د.ت:٢٥/٢٢٩-٢٣٠) (Ibn Ashour,Without date:25/229-230).

ثم يعود بعد ذلك ليستفهم مرةً أخرى استفهاماً مقترناً بالنفي التقريري الذي صدّر به رسالته الإعلامية لقومه ﴿ **أَفَلا تُبْصِرُونَ** ﴾، مؤكداً المعنى نفسه ومرسخاً إيّاه بنفي فعل الإبصار الذي لا يُحرم منه إلاّ من قد عَمِيَ عن رؤية أوضح الواضحات. وكأنه يقول أفلا ترون ما أنا فيه من أسباب العظمة والملك، فهو يوهم قومه أن المُلك والمال والسلطان دليل على أنه خير من موسى الذي كان صفر اليدين من هذا كله، وبذلك يخدع قومه بأن موسى لو كان محقاً في ما يأتي به من الآيات ولم يكن ساحراً لأكسب نفسه من الملك والعظمة مثل الذي هو فيه من ذلك، ولهذا نسبه إلى المهانة، إذ أنتج فرعون رسالة تجذب انتباه متلقيها؛ وذلك لتلاؤم موضوع الرسالة مع حاجة هذا المتلقي إلى هكذا رسالة تشبع رغباته المادية التي يتطلع إلى تحقيقها إنه يخاطب قوماً تعلقت بالحياة وزخرفها قلوبهم وامتلأت بها عقولهم، وفي تلك اللحظة التي لم يعودوا يرون فيها غير المال، ينفث فرعون في روعهم مراده، بقوله: ﴿ **فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاء مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ**﴾(سورة الزخرف:٥٣)(Surat Alzakhrif: 53)، فأوهم قومه أن رسل الله ينبغي أن يكونوا كرسل الملوك في الشاهد، ولم يعلم أن رسل الله إنما أيدوا بالجنود السماوية.

و(أم) في قوله تعالى : ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ منقطعة بمعنى (بل) للإضراب الانتقالي، تصغيراً من شأن موسى في نفوس الناس، وتعظيماً لذاته من طريق ضمير المتكلم (أنا)، بل زادها تعظيماً عندما قابلها في نهاية الآية (ولا يكاد يبين). ثم أعرض عن ذكر اسمه وأشار إليه باسم الإشارة (هذا) للتحقير، وبعد اسم الإشارة مباشرة ((جاء بالموصول لادعاء أن مضمون الصلة شيء عُرف به موسى)) (أبي السعود، ٢٠١٠، مج٢٥، ص٢٦٩) (Abi Al-Saud, 2010, Vol.25, P269).

فهو مهين، وكذلك لا يكاد يبين، وهذه المهانة وعدم الإفصاح عن مبتغاه تجردانه من المهابة والإبانة فتقوضان بذلك إمكانية قيادته لبني قومه، فضلاً عن قوم فرعون.

المغالطة في الحجاج :

إن عدم استقرار فرعون على منطلقات واضحة في خطابه ومتبنيات ثابتة في تفكيره يكشف عن مغالطاته في حجاجه، قال تعالى حكاية لقوله : قَالَ﴿ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ (سورة الشعراء: ٣٤-٣٥) (Surat Alshueara': 34-35) فقد نسب فرعون الأرض إلى قومه (أرضكم) في هذا الموقف في حين نسبها إلى نفسه في موقف آخر: ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَ�ٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (سورة الزخرف:٥١)(Surat Alzakhrif: 51)، وقال : ﴿ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾ ، قوله هذا ينطوي على مغالطتين: الأولى أنه يستشيرهم ويطلب رأيهم في الوقت الذي كان يُحرّم عليهم التفكير حين قال لهم في موقف آخر: ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾(سورة القصص: ٣٨) (Surat Alqasas:38)، والثانية أنه نسي ادّعاءه الربوبية التي من لوازمها الاستقلال في الرأي والتدبير وعدم الحاجة إلى مشاورة الآخرين، والاستغناء عنهم في كل شيء، وفي جميع الأحوال، فبعد أن كان يدَّعي أنه آمرٌ أصبح ينتظر الأوامر لينفذها طالباً رضا مَنْ يأمرهُ!.

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحاً لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَٰهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (سورة القصص: ٣٨) (Surat Alqasas:38)، (ما علمت لكم من إله غيري) ((والمراد بنفي علمه بذلك نفي وجود إله غيره بطريق الكناية، يريهم أنه أحاط علمه بكل شيء حق فلو كان إله غيره لعلمه)) (ابن عاشور، د. ت: ٢٠/٥٧)(Ibn

(Ashour, Without date: 20/57) . والمراد من قوله هذا هو إبطال لقول موسى ﷺ، فقد أراد أن يظهر لقومه في مظهر المتطلب للحق المستقصي للعوالم.

إن تحريم التفكير الذي أفاده قول الله ﷻ على لسان فرعون ﴿ **مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي** ﴾ هو أول إجراءات الاستعباد والرِّق الفكري الذي يستتبع الرّق الجسدي، لذلك سعت كل طواغيت الأرض إلى تجهيل أقوامها واتباع سياسة القطيع معها وإذلالها؛ من أجل بقاء سلطانها، ودوام ملكها؛ لذلك حارب الإسلام الجهل والتجهيل في أول إشراقة لنوره بقوله ﴿**اقْرَأْ**﴾(سورة العلق: ١) (SuratAlealaq:1)، وكما أفاد خطاب فرعون مصادرة التفكير أفاد تكريس الصنمية التي جاء الإسلام لاقتلاعها من جذورها، فقد جاء الأمر الإلهي لنبينا الأعظم ♦ ﴿ **قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ** ﴾ (سورة الكهف: ١١٠) (Surat Alkahf:110)، للقضاء على العقلية الصنمية.

يتظاهر فرعون بالإنصاف والتثبت ﴿ **فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحاً لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى** ﴾ منه وهو بذلك يوهم شعبه أنه يسعى لطلب الحق، ولكن لغته تكشف دفائن نفسه ومخَبآت لا وعيه فتظهر رغبته في السخرية والاستهزاء والتهكم بموسى ﷺ، إذ يتضح أن (لعل) دلالتها القريبة هي الرجاء، ودلالتها البعيدة هي السخرية والاستهزاء بموسى، والتهكم من دعوته إلى التوحيد ﴿ **قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ**﴾(سورة الشعراء: ٢٣) (Surat Alshueara': 23)، إذ كيف يدعوه موسى إلى التوحيد وعبادة ربِّ العالمين، وهو يدّعي أنَّه الرّبّ الأعلى ﴿ **فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى**﴾(سورة النازعات: ٢٤) (Surat Alnaazieat: 24) .

مارس فرعون على بني إسرائيل الإرهاب بأنواعه كلها، وأسوأ هذه الأنواع الإرهاب الفكري، فقد سعى إلى تجهيل بني إسرائيل؛ فأدخلهم في ضلال فكري، قادهم إلى انكسار روحي، وظلام نفسي، تسافلت معه الذات البشرية إلى ما دون رتبة الآدمية، وبذلك قتل فرعون الإنسان في داخل الفرد، ومن ثم شوّه صورة الله تعالى داخل الفرد ذاته، فصورة الإله المعبود يكوّنها الإنسان على وفق الصورة التي يمتلكها عن نفسه ﴿**اجْعَل لَّنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ** ﴾ (سورة الأعراف: ١٣٨) (Surat Al'aeraf: 138)، فارتدادهم هذا إلى حالة الوثنية البدائية بعد أن رأوا معجزات موسى ﷺ التي أيده بها الله ﷻ ، إنما جاء لطول إلْفِهم للهوان والذل والاستعباد على يد فرعون، فظلوا أُسارى لفكرة عبودية المخلوق ولم يستطيعوا الارتقاء إلى فكرة الذل للخالق.

وبعد أن اتهم فرعون موسى بالجنون اتهمه بالكذب، فقال (وأنّي لأظنّه من الكاذبين)، وأصل الكلام في غير القرآن، وأنا أظنه كاذباً، ولكن فرعون جاء بمؤكدين، الأول (أنَّ) والثاني بعده مباشرةً (اللام المزحلقة) في (لأظنهُ). ولم يكتف بذلك ، فنسب موسى إلى جماعة الكذّابين، فهو لم يكن كاذباً حسب، بل هو (من الكاذبين)، فهذه العبارة توحي بأن الكذب متأصل فيه، إذ ينتمي إلى مجموعة ديدنها صناعة الكذب، وبذلك صادر المطلوب .

فقد أراد فرعون أن يُظهر نفسه أمام قومه مظهر المُنصف لخصمه، والساعي لطلب الحقيقة، ليثبت بعد ذلك كذب ما جاء به موسى عليه السلام، ليزداد قومه تمسكاً به، ونفوراً من موسى، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، إن فرعون كان يعتقد في نفسه أن موسى عليه السلام على حق، وما جاء به هو الصدق، والحق، وقد أشار القرآن إلى ذلك في قوله: ﴿**وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ**﴾(سورة النمل:١٤)(Surat Alnaml: 14)، ولكن غرور فرعون وغطرسته، جعلاه لا يقرّ بما تيقنته نفسه، ولا يذعن لما يقرّه شعوره ووجدانه، ولكن لغته كشفت عن مخبآت نفسه ودفائن لا وعيه المكبوب بسلطة (أناه)، فلم يستطع أن يجزم قاطعاً، من حيث لا يشعر، بكذب موسى عليه السلام، فلسانه لم يطاوعه أن يجزم بكذبه، وكأنَّ وعيه المكبوب انفلت من سطوة جبروته في لحظة ضعف أمام الحقيقة، فثمة منطقة نفسية لا شعورية تمرّدت على سيطرته، فهو إذ يحاول إظهار نفسه بمظهر الطالب للحقيقة نجده في السياق عينه لا يملك أن يمسك نفسه عن الطعن بموسى وإظهار مكنونات نفسه التي تكشف عن غرور مستحكم فيه واستكبار سدَّ عليه منافذ طلب الحقيقة، فلم يبقِ له خياراً سوى مصادرة الحقيقة التي كان يحاول للتو تصنّع طلبها.

ومن مغالطات فرعون قوله تعالى حكاية لقول فرعون : **قَالَ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾**(سورة الشعراء: ١٨) (Surat Alshueara': 18)، حَرَفَ فرعون الحجاج عن مساره، واستبطن اتهام موسى بجحد نعمته عليه، وتربيته له وليداً محاولاً بذلك إظهار نفسه أنه صاحب حق في حين أن الحق الذي يعرضه موسى لا صلة له بذلك، فهنا تكمن المغالطة ومحاولة الالتفاف على موطن النزاع في الحجاج.

صناعة الكذب :

تصنع الدكتاتوريات هيئات صورية تُجمّل الرأي الاستبدادي وتشرعنه، بل تباركه، وهذه الطبقة من الهيئات الصورية منفعتها مرتبطة بالحكم الدكتاتوري، وبقاء امتيازاتها مرتبط ببقاء الدكتاتور نفسه، فدفاعها عن الدكتاتور، هو دفاعها عن مصالحها وامتيازاتها، فالطاغية وبطانته فئةٌ واحدةٌ قال تعالى: ﴿إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمًا عَالِينَ﴾ (سورة المؤمنون: ٤٦) (Surat Almuminun: 46)، و قَالَ ﴿ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ (سورة الأعراف: ١٠٩) (Surat Al'aeraf: 109)، و وَقَالَ ﴿ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ﴾ (سورة الأعراف: ١٢٧) (Surat Al'aeraf: 127).

قال الملأ ما أراد فرعون أن يقوله أي ما كان فرعون راغباً في قوله.

إنَّ فرعون يدفع بطانته إلى أن تقول ما يريد هو أن يقوله، ليوهم الشعب أن قراره قرار جماعي .

إن البطانة السيئة تصنع الدكتاتور، فلو أردنا أن نرتب الكلام على وفق الدلالة النفسية فسيكون: قال فرعون، فأيد الملأ قوله، بل باركه حين أجاب سؤالهم الاستنكاري صورة، التقريري حقيقة ﴿ أَتَذَرُ مُوسَىٰ﴾ وكأن هؤلاء يملكون ألاّ يذروه، وهذا منتهى تغييب الوعي، وكأنه يوحي بأنهم أصحاب قرار وإرادة، حتى لا يقال عنه أنه منفرد في الرأي والقرار.

وأكثر من ذلك إيغالاً في صناعة الكذب حين يصور فرعون نفسه مقيداً برأي شعبه ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ (سورة غافر: ٢٦)(Surat Ghafir:26)، وكأنهم يملكون أن يمنعوه من قتل موسى، فيطلب منهم أن يتركوه يقتل موسى خوفاً على دينهم أن يبدله موسى، وصوناً للأرض من فساده، وفي ذلك إيهام إشراكهم في اتخاذ القرار. إن فرعون يصور شعبه أنهم أصحاب القرار وهو المنفذ لقرارهم وإرادتهم، الحريص على حفظ دينهم، الحامي لمصالحهم. وهذه هي الدكتاتورية في أبشع صورها، صورة الديموقراطية الموهومة المزيفة .

وحين جاوز الله ﷻ ببني إسرائيل البحر ﴿ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيًا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ

﴿بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾(سورة يونس: ٩٠) (Surat Younis:90)، فلم يقل فرعون آمنت بالله أو آمنت برب العالمين فهو حتى في لحظة الغرق لا يستطيع إلا أن يكون محتالاً مخاتلاً، ومراوغاً مضللاً، فقد استحكم الكذب في بنية خطابه فبات لا يستطيع منه فكاكاً حتى في أشد اللحظات الحرجة في حياته. فكل إنسان يكاشف نفسه عندما يواجه مصيره المحتوم، ولكن فرعون أصر على موقفه الاستكباري إذ يكشف النسق المضمر في خطابه تعاليه على ربَّ العالمين، إذ سبق وإن أنكر وجوده ﴿ قَالَ فِرۡعَوۡنُ وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾(سورة الشعراء: ٢٣)(Surat Alshueara':23). بل ادّعى هذا الأمر لنفسه: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾(سورة النازعات: ٢٤) (Surat Alnaazieat:24) ، في مقابل قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾(سورة الأعلى: ١) (Surat Al'aelaa:1) .

فكلمة الأعلى هنا تتضمن معنى الفوقية المطلقة، ويفهم من هذا استحالة اتصاف غيره تعالى بصفة الأعلى، لكن فرعون كان يحصر هذا المعنى في شخصه، ويدّعي أنه هو (الأعلى)، فيقول: أنا لست إلهاً حسب، بل أنا الإله الأوحد، فهو ينادي بشعار (لا إله إلا أنا) بدلاً من شعار (لا إله إلاّ الله) الذي يفيد الحصر الذي كان فرعون يدعيّه، لذلك اتّهم فرعون موسى ﷺ بالجنون، قال الله ﷻ حكاية لقوله ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٞ﴾(سورة الشعراء: ٢٧) (Surat Alshueara': 27)، حرص فرعون على إلصاق هذه التهمة بموسى ﷺ، فقد أكد كلامه بمؤكدين (إنّ) المؤكدة، واللام المزحلقة في خبرها (لمجنون)، ولم يكتفِ بذلك، فقد نسب إرساله إلى بني إسرائيل (إليكم) ولم يشرك نفسه وقومه في هذه الرسالة، فقال (رسولكم)، فهو يخصكم أنتم ولا شأن لنا به، بل يستبطن وصف فرعون لموسى هنا بالرسول (رسولكم) أكثر من ذلك، فهو يحمل تهكماً به وسخريةً من قومه، فكيف يؤمنون به إلاّ إذا كانوا يشاركونه في الجنون؟!، وتجنب ذكر اسم موسى، فجاء بالاسم الموصول (الذي)؛ لتهوين شأنه والحطّ من منزلته، وكأن موسى ﷺ مجهول عنده غير معروف، وهو ربيبه! وبعد ذلك جاء بالفعل المبني للمجهول (أُرسل)، وكأنَّ مَن أرسله هو أيضاً مجهول عنده غير معلوم؛ ليكون رسوله أكثر هواناً وأحطَّ منزلة منه، ومع اتهام فرعون لموسى ﷺ في عقله (لمجنون) تبطل كل حجة يمكن أن يأتي بها موسى ﷺ، وهذا غاية المكر والخداع وتضليل الناس.

هيمنة البنية التسلطية:

بعد كل ما أنزل الله من آيات بينات، مؤيداً بها دعوة رسوله موسى ٥، وبعد كل ما بذله موسى ٥ من جهود متواصلة وحثيثة، لإيقاظ وعي قومه، لم يؤمن به إلاّ نفرٌ قليلٌ من قومه و(على خوف) من فرعون وبطشه ﴿ **فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ** ﴾(سورة يونس: ٨٣) (Surat Younis:83)، كأنهم يركبون الخوف، والخوف يأخذهم حيث يريد، فقد عطّل الخوف إرادتهم، فالإرث الإرهابي متأصِّلٌ في مملكة فرعون حتى أضحى ذاكرتها الجمعية، وأنساقها المضمرة في بنيتها العميقة، فحالة الخوف الدائمة تولّد شخصية مضطربة غير قادرة على التحكم في سلوكها، وضبط آليات تفكيرها، ومن ثم العجز عن التخلص من رؤية الذات والعالم، والوجود من منظور الطرف الآخر المُستعبِد.

وأما من قوم فرعون فلم يؤمن به إلاّ رجل واحد (يكتم إيمانه) ، ﴿**وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ** ﴾(سورة غافر: ٢٨)(Surat Ghafir:28)، فقد سلك الناس سلوك التخفي في ظل شخصية مستبدة عقدتها وسر استبدادها يكمن في تصورها أنها ربّ وإله ، وقوله تعالى: ﴿**يَكْتُمُ إِيمَانَهُ** ﴾ فيه إشارة إلى إرهاب فكري، فكتمان الإيمان أعَمُّ من الخوف، فقد يكون من خوف أو غيره، فمع إدمان الخوف والإسكات القسري يُصبحُ الإنسان خارج نطاق إرادته وحواسه، فيتحول إلى آلة صماء بيد مُستعبِده.

وكلما تغلغل هذا الإرث الإرهابي في بنية المجتمع، مع تقادم الزمن، أصبح جزءاً من هوية الأمة، وحينها يصبح مقدساً؛ لذلك يتم تجريم المعارضين له، ومن ثم يكون التعامل معهم بالعنف أمراً مشروعاً، بل مقدساً.

تأتي السلطة الدكتاتورية دائماً بمقدمات تحاول بها إيجاد بنية مجتمعية خانعة مستقبلة، فإذا تمَّ لها ذلك، وقع في وهمها أنها قد تمكنت تمكناً تاماً وسدّت كل منافذ المعارضة الواعية، وغاب عنها أنها مهما أُوتيت من قدرة على تغييب الوعي فلا بد أن يظهر من القاعدة المقهورة المُغيَّبة مَنْ يتطلع إلى الانعتاق من أسر هذا التغييب. وهذا ما كان بين فرعون وموسى ٥.

إنَّ الرضا بالحاكم المستكبر ﴿ **فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى**﴾(سورة النازعات: ٢٤) (Surat Alnaazieat:24) واستمراء كذبه ﴿**كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ**﴾(سورة آل عمران: ١١) (Surat Al Imran: 11) وتأييد ظلمه ﴿**ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى**

فِرْعَـوْنَ وَمَلَئِـهِ فَظَلَمُـواْ بِهَـا فَـانظُرْ كَيْـفَ كَـانَ عَاقِبَـةُ الْمُفْسِـدِينَ ﴾(سـورة الأعـراف: ١٠٣) (Surat Al'aeraf: 103)، تنقـل عـدوى اسـتكباره وعلـوه إلـى قومـه والمحيطـين بـه ﴿ **ثُـمَّ أَرْسَـلْنَا مُوسَـى وَأَخَـاهُ هَـارُونَ بِآيَاتِنَـا وَسُـلْطَانٍ مُّبِـينٍ* إِلَـى فِرْعَـوْنَ وَمَلَئِـهِ فَاسْـتَكْبَرُوا وَكَـانُوا قَوْمـاً عَـالِينَ**﴾ (سورة المؤمنون: ٤٥-٤٦) (Surat Almuminun:45- 46)، وكذلك قولـه تعـالى: ﴿ **وَاسْـتَكْبَرَ هُـوَ وَجُنُـودُهُ فِـي الْأَرْضِ بِغَيْـرِ الْحَـقِّ وَظَنُّـوا أَنَّهُـمْ إِلَيْنَـا لَا يُرْجَعُـونَ**﴾ (سـورة القصـص: ٣٩) (Surat Alqasas: 39) ، فالاسكتبار (أنـا ربكـم الأعلـى) يقـود إلـى التكـذيب (كـذبوا بآياتنـا) والتكـذيب يقـود إلـى الظلـم (فظلمـوا بهـا)، وهـو تجـاوز مرحلـة التكـذيب إلـى مرحلـة التعـدّي، والفعـل (ظلـم) يُعَـدَّى بنفسـه، وهنـا عُـدِيَ بالبـاء، لأنـه تضـمَّن معنـى الاعتـداء، فضلاً عن التكذيب.

الاسـتبداد هـو الجـامع بـين الـدكتاتوريات فـي العـالم القـديم والـديمقراطيات الصـورية فـي العـالم الحـديث؛ فالـدكتاتوريات اسـتبداد أفـراد والـديمقراطيات اسـتبداد فئـات، بـل إن تغييـب الـوعي فـي الـديمقراطيات الحديثـة هـو أكبـر مـن تغييبـه فـي ظـل الأنظمـة الدكتاتوريـة؛ لأن الـدكتاتور بطبيعتـه مُغيِّـب للـوعي، فتغييبـه للـوعي أحـادي البعـد، فـي حـين أن تغييـب الـوعي فـي ظـل الـديمقراطيات الحديثـة متعـدد الأبعـاد، بمعنـى أنـه يظهـر لـك فـتح آفـاق الـوعي، فـي الوقـت الـذي يسـد فيـه عليـك جميـع منافـذه الممكنـة، فيجعلك تعيش في تناقض يصعب الخروج منه.

الخاتمة:

١- تفرض اللغة سلطانها على الفكر، فالحقيقة موزعة بين اللغة والواقع، إذ إننا نعبّر – من طريق اللغة – عن مدركات أو متصورات لا عن حقائق وقد يكون للكلمات من الإحالات الذهنية أكثر مما لها من مراجع خارجية، فعندما نتلقى خطاباً ما تستنطق الذاكرة مخزونها التأريخي ومحفوظها الثقافي، فلا يمكن تلقي أيّ خطاب بذاكرة بيضاء، فالصفر كيان افتراضي يشي بانعدام الصفة، فالذاكرة لها إرادتها؛ لذلك فإن جزءاً من اللغة يبقى متوارياً عنا ومستوطناً في التأريخ القريب أو البعيد للطبقة الاجتماعية لأولئك المتحدثين بها. فلكل خطاب موقعه من العلاقات الاجتماعية التي تحكمنا، إنه بنية قمعية متوارثة، يسبغ عليها اللاهوت صفة القداسة، فلا يستطيع الإنسان تحت سطوتها أن يمارس جوهره الإنساني، أي الحرية التي هي امتلاك الوعي والشعور المستقل بالوجود نفسه.

٢- طغى حضور (الأنا) في خطاب فرعون التسلطي الساعي إلى تضليل قومه؛ إذ غلب على خطابه لبني إسرائيل منطق التعالي والفوقية وعلو (الأنا) عليهم؛ ليكرس ربوبيته

المزعومة لهم . فقد كشف تفكيك خطابه عن طغيان حضور الضمائر الذاتية . فالتكيف اللغوي يستتبع تكيفاً فكرياً إذ يستجيب العقل لآليات تفكيره اللغوي.

٣- اختار فرعون من الألفاظ ما يثير الرعب والفزع الشديدين في نفوس بني إسرائيل، ليعطل تفكيرهم وإرادتهم؛ من أجل أن يدفعهم باستمرار إلى إنتاج عبوديتهم، ليطمئن على دوام سلطانه وبقاء حكمه؛ فالإرادة المعطلة لا تنتج مقاومة الاستعباد وممانعة العبودية . فقد كشفت لغته عن دفائن رغبته ومخبآت لا وعيه الشعورية في استعباد بني إسرائيل .

٤- تسبق العبوديةُ المعرفيةُ العبوديةَ الجسديةَ؛ وبذلك مهدت الإبادة الثقافية للإبادة الجسدية الجماعية. فقد كان أوّل إجراءات الاستعباد تحريم التفكير، لخلق وعي مزيف.

٥- يمكّن الأنبياء أممهم من امتلاك الوعي المتقدم وتوفير فرصة تجاوز الوعي القائم، وبذلك يهيئون القوى المؤهَّلة لهدمه، وتقويض الأنساق التي تعيد إنتاجه؛ فمهمة الأنبياء فكّ العلاقة البنيوية التي تربط الشعب بالنظام الدكتاتوري التسلطي الذي يدفعهم باستمرار باتجاه إعادة إنتاج نسق عبوديتهم وخضوعهم اللاشعوري له .

٦- تُعَدُّ السلطة الفرعونية جهازاً لإنتاج الخوف وبث الرعب في نفوس الرعية، حتى أصبح الخوف جزءاً تكوينياً ثاوياً في ذاكرتها الجمعية، فأصبحت الأمة الفرعونية حبيسة خوفها وذاكرتها التاريخية، فالخوف يعيد تشكيل وجودنا في هذا العالم؛ ومن ثم يعيد صياغة وعينا وطريقة استجابتنا لما يحيط بنا؛ فالتحولات الاجتماعية والفكرية المفصلية تؤسس لعلاقة جديدة بين الإنسان وما يحيط به.

٧- لا تتحصّل الدلالة العميقة المقصودة في خطاب التضليل الفرعوني إلاّ باستحضار البنية المُغَيَّبة عن قصد في هذا الخطاب؛ لذلك فالدلالة المضمرة لا تقلُّ أهمية عن الدلالة الظاهرة في الكشف عن آليات خطاب فرعون الاستعلائي المُقنَّع.

المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم**
- ابن الضريس، أبو عبد محمد بن أيوب بن يحيى (٢٠٠-٢٩٥هـ)، فضائل القرآن وما أنزل من القرآن بمكة وما نزل بالمدينة، تحقيق ودراسة: د. مسفر بن سعيد دماس الغامدي، دار حافظ للنشر والتوزيع ، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.
- ابن سيده، المخصص، بيروت، دون طبع، دون تاريخ.
- ابن عاشور، محمد الطاهر، تفسير التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور، مؤسسة التاريخ، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى، دون تاريخ.
- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأفريقي المصري، لسان العرب، دار إحياء التراث العربي، دار صادر، بيروت- لبنان، دون تاريخ.
- أبو سعدة، محمود رؤوف عبد الحميد ، من إعجاز القرآن في أعجمي القرآن- وجهٌ في إعجاز القرآن جديد، دار الميمان للنشر والتوزيع، الرياض- المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ٢٠١١م.

- أبي السعود، محمد بن محمد بن مصطفى العمادي الحنفي (ت٩٨٢هـ)، تفسير أبي السعود أو إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، تحقيق: خالد عبد الغني محفوظ، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠١٠.
- آملي، آية الله جوادي ، المرأة في مرآة الجلال والكمال، ترجمة: خليل عصامي، قم المقدسة، اسراء ١٣٨٧هـ.ش.
- التهامي، د. نفرة، سيكولوجية القصة في القرآن، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، ١٩٧٤.
- الراغب الأصفهاني المتوفى في حدود (٤٢٥هـ)، مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، الدار الشامية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م.
- السامرائي، د. فاضل صالح، معاني النحو، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي- جامعة بغداد، مطبعة دار الحكمة للطباعة والنشر، الموصل، ١٩٩٠.
- عكاشة، محمود: التحليل اللغوي في ضوء علم الدلالة، دار النشر للجامعات، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥م.
- الفاضلي، د. فرح، الذكورة والأنوثة في القرآن الكريم، الرافدين للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان ، الطبعة الأولى، ٢٠١٨.
- فضل الله، محمد حسين، الحوار في القرآن- قواعده- أساليبه- معطياته، الدار الإسلامية، الطبعة الأولى، ١٩٧٩م.

Sources and references

The Holy Quran

− Ibn Al-Darys, Abu Abd Muhammad Ibn Ayyub bin Yahya (200-295 AH), the virtues of the Qur'an and what was revealed from the Qur'an in Mecca and what was revealed in Medina, an investigation and study: Dr. Mesfer bin Saeed Damas Al-Ghamdi, Dar Hafiz for Publishing and Distribution, Riyadh, first edition, 1408 AH-1988 AD.

− Ibn Saydah, The Ad Hoc, Beirut, without printing, without history.

− Ibn Ashour, Muhammad Al-Tahir, the interpretation of liberation and enlightenment known as the interpretation of Ibn Ashour, History Foundation, Beirut - Lebanon, first edition, without history.

− Ibn Manzoor, Abu Al-Fadl Jamal Al-Din Muhammad bin Makram Al-Afriki Al-Masri, Lisan Al-Arab, House for the Revival of Arab Heritage, Dar Sader, Beirut - Lebanon, without date.

− Abu Sa`da, Mahmoud Raouf Abdel-Hamid, from the miracle of the Qur'an in the Ajami of the Qur'an - a new aspect of the miracle of the Qur'an, Dar Al-Maiman for Publishing and Distribution, Riyadh- Saudi Arabia, first edition, 2011.

− Abu Al-Saud, Muhammad Ibn Muhammad Ibn Mustafa Al-Emadi Al-Hanafi (982 AH), interpretation of Abu Al-Saud or guiding the sound mind to the merits of the Holy Book, investigation: Khaled Abdel-Ghani Mahfouz, Dar Al-Kutub Al-Alami, Beirut - Lebanon, first edition, 2010.

− Amely, Ayatollah Jawadi, the woman in the mirror of majesty and perfection, translation: Khalil self-made, holy Qom, Israa 1387 A.H.

− Al-Tohamy, Dr. Nafra, The Psychology of the Story in the Qur'an, The Tunisian Company for Distribution, Tunis, 1974.

− Al-Ragheb Al-Isfahani, who died within the limits of (425 AH), vocabulary of the words of the Qur'an, Investigation: Safwan Adnan Daoudi, Dar Al-Qalam for Printing, Publishing, and Distribution,

Damascus, Shami House for Printing, Publishing, and Distribution, Beirut, first edition, 1416 A.H-1996A.D.

- Al-Samurai, d. Fadel Salih, Meanings of Grammar, Ministry of Higher Education and Scientific Research - University of Baghdad, Dar Al-Hekma Press for Printing and Publishing, Mosul, 1990.

- Okasha, Mahmoud: Linguistic Analysis in the Light of Semantics, University Publishing House, Cairo, First Edition, 2005 AD.

- Al-Fadhili, Dr. Farah, masculinity and femininity in the Noble Qur'an, Al-Rafidain for printing, publishing and distribution, Beirut - Lebanon, first edition, 2018.

- Fadlullah, Muhammad Hussein, The Dialogue in the Qur'an - Its Rules - His Methods - His Data, The Islamic House, First Edition, 1979.

Analyzing Pharoah's Misleading Discourse in the Holy Quran

Assistant Professor Haider Fadhil Abbas, Ph.D.
University of Baghdad, College of Arts

Abstract

Analyzing the authoritarian discourse in the Holy Quran uncovers the invisible aspect of language and shows the unconscious response to the power of its hidden patterns. Linguistic adaptation involves an intellectual and ideological adaptation as the mind responds to its linguistic thinking mechanisms. If reality precedes language and language follows it, then language, with all its power and influence over the unconscious, forms this reality as if it precedes rather than follows it.

The fact that a given people suffer under the power of brutal suppression by a dictatorship for a long time leads to the production of another suppressive power, i.e. the collective unconscious power which creates a split in the individual personality and entrenches the values of slavery and its patterns. The suppressive legacy is so deep-rooted in Pharoah's kingdom to the extent that it became its collective memory. Over time, the more this legacy permeates throughout the structure of society, the more it becomes a part of the nation's identity, and thus becomes sacred.

The fact that the Israeli people suffered under the power of cruel repression in Pharoah's kingdom for a long time led to the production of another suppressive power, i.e. the collective unconscious power which created a split in the individual Israeli personality and entrenched in him the values of slavery and surrender to its patterns.

Due to its severity and long duration, the feeling of being under suppression inside the conscious area creates a power of suppression and monitoring inside the unconscious. This leads the personality to create an internal repressive monitor so that a human cannot practice his own human essence under its control; and therefore his will remains paralyzed and searching for a landmark event at a historic moment that brings a new vision that saves this human being from producing his slavery which tyranny forces him to re-produce time after time.

Key words: Holy Quran, Misinformation, Pharaoh, Khattab